وكانت قد اختارت للحاج مسعود بنفسها فيما بينها وبين نفسها زوجته الثانية، ولكن الحاج مسعود كان جادًّا في رفضه وجادًّا في إنذاره بأن يرفع أمرها إلى الشيخ، وقد زاد حبه لها منذ تلك المحنة، واشتدَّ عطفه عليها، حتى لقد كان يصطحبها معه إلى الحج إيثارًا لها بالخير وكراهية لفراقها؛ فما ينبغي أن يسوءُ ظنها به أو يفسد رأيها فيه، وما ينبغي لها إلا أن تُطيعه وتُذعن لأمره، إنه سيفرق بينها وبين ابنتها؛ فليكن ما يريد، فلولا أنَّ الله قد كتب ذلك لما خطر هذا الخاطر للشيخ، ولما ألحَّ فيه الحاج مسعود، وهل خُلِقَ النساء في هذه الحياة إلا لطاعة الأزواج والإذعان للقضاء المكتوب؟!

فلمَّا عرف خالد ذلك تردد ساعة بين الرضا والسخط، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إلى الرضا؛ فهو لم يتعود أن يُخالف عن أمر الشيخ، وهو مَدين بما في حياته كلها من خير وشر للشيخ ولأبيه، فأمَّا الشيخ الكبير فقد زوجه نفيسة وأذاقه ثمرة البؤس، ولكنَّه خطب به «منى»، وأما الشيخ الشاب فقد زوجه منى وفتح له أبوابًا من الخير، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾.

وهو يُقبل مع امرأته على حماته يُسليانِها ويُعزيانها ويترضيانها، حتى تُظهر الرضا وفي نفسها إذعان، ولكنه إذعان ساخط مغيظ.

فإذا قصَّ خالد أمره على أخيه وصديقه سليم، قال له هذا ضاحكًا: لم تنبئ بأمرك جاهلًا! فقد علمت منه مثل ما تعلم، وقد سُررت له وحمدته للشيخ وإن كنت لأضمر له حبًّا عميقًا، وأكاد أندم على أنِّي لست من أتباعه وشيعته، فلو قد كنت منهم مثلك لجاز أن يجد لي عملًا كالذي وجده لك، يبسط لي في الرزق ويخرجني من هذه المدينة التي أخذتُ أبغضها أشدَّ البغض وأضيق بأهلها أشد الضيق. قال خالد أتحب أن أكلمه في ذلك؟ قال سليم: لا تفعل! فإنِّي لم أحسن رعاية حقه، ولا أراني قادرًا على أن أستأنف معه سيرة جديدة؛ فقد ألحقني أبوه بعملي كما ألحقك بعملك، فوفيتَ أنت للرجلين، ووفيتُ أنا للشيخ الكبير وقصرت في ذات الشيخ الصغير، وماذا تريد أن أصنع؟ لقد لاعبته صبيًّا، وداعبته وخاصمته شابًّا، فكيف تريدني على أن أرى فيه الآن شيخًا له فضل أبيه، أتراني أستطيع أن أدين لك بمثل ما تدين به للشيخ، وإنما نحن أتراب، لعبنا معًا، ونشأنا معًا، ثم افترقت بنا طُرُق الحياة، فأصبح هو شيخ طريق، وأصبحت أنا كاتبًا في المديرية، وأصبحت أنت كاتبًا في المحكمة، أستغفر الله، بل موظفًا في الدائرة السنية يقبض في آخر الشهر ثمانية جنيهات لا أربعة. قال خالد وهو يضحك: صدق